المجد لله في العلى ...
وعلى الأرض السلام

"المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام" ... إننا نتعجب عندما نقارن هتاف الملائكة هذا مع حالتنا الحاضرة، حيث حلّت الحروب الطاحنة محل السلام. فلا نرى إلا رؤوساً تتطاير، وأشلاء تتناثر، وسيول دماء تجري، ومدناً عامرة تدمر، وملايين من الأيتام والأرامل والأسرى والمشردين في عذاب وشقاء، وقد تحولت أعيادهم إلى مناحة وبكاء ... فالعالم كله في نار ودمار.

كل ذلك يدعو إلى العجب والتساؤل: أين بقي إذن هذا السلام الذي جاء به المخلص والذي بشر به الملائكة؟ ألا يسمع الملوك ورؤساء الدول المتطاحنون بالحروب هتاف الملائكة؟، فلِم لا يعملون على إرجاع السلام إلى العالم؟...لم نر هذا السلام الثمين مفقوداً رغماً عن مجيء المخلص الذي ندعوه إله السلام؟.

إن السلام الذي ينشده أهل العالم لا يتناسب مع السلام الذي أتى به المخلص. فالعالم يطلب السلام من وراء الكبرياء وحب الغِنى والمطامع في الخيرات الأرضية واتباع الأميال والأهواء الخبيثة ... في حين سلام المسيح يقوم بقهر الكبرياء بالإتضاع، واحتقار الغِنى بالفقر، وقمع اللذات بالعذاب. ولذلك لما منح يسوع سلامه لرسله ليلة الوداع الأخير قال لهم:"سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا" ... فسلام المسيح هو سلام أبناء الله ... السلام الباطني الذي يجرد النفس من الأرضيات ليجعلها تتحد بالله.

غير أن العالم لم يرد أن يفهم معنى هذا السلام، فلذا يقول الإنجيل عن المخلص:"جاء إلى خاصته وخاصته لم تقبله". نعم، لم يقبل العالم مثل هذه التعاليم السامية، تعاليم الإتضاع والفقر والاحتمال ... ففي ابتعاد العظماء والمتكبرين عن تعاليم المسيح وعن سلام المسيح نشأت الحروب في كل جيل، وحصلت المجازر البشرية الأليمة في جيلنا.

وما يحصل بين الملوك والرؤساء يحصل أيضاً في العائلات والأفراد التي تترك المسيح جانباً وتنقاد إلى الأهواء والأميال المنحرفة، لأن أغلب النزاعات والخلافات التي نراها بين العائلات، بين الرجل وامرأته، والكنة وحماتها، بين الأب وأولاده، والأم وابنتها، بين الأخ وأخيه، والأقارب والأهل والجيران مع بعضهم، كل هذه الخلافات والنزاعات التي تفقدنا السلام الحقيقي لا تنشأ إلا من الكبرياء أو حب المال أو طلب اللذة والراحة، وبكلمة واحدة لا تنشأ إلا من إتباعنا الأميال والأهواء التي فينا.

فلو حارب الإنسان أهواءه، لما افتكر بمحاربة قريبه. لو استعمل سيف القتال ضد شهواته وأمياله، لما استعمل هذا السيف ليقتل أخاه ... وهاهو المخلص يلقي علينا مثل هذه التعاليم بمثاله العجيب من أول يوم ولادته، وهو مثال الإتضاع والفقر وحب الاحتمال.

لندخل إذاً إلى مغارة بيت لحم بإيمان وخشوع وورع، ولنسمع هذا المعلّم الإلهي العجيب يلقي علينا دروسه الخلاصية من أعلى منبر مذوده الحقير.

ليدخل المتكبرون الذين يريدون السيطرة والعظمة، ويتباهون بالـشرف والحـسب والنـسب والـصفات والألقاب، ليدخلوا المغارة مطأطئي الرؤوس أمـام هـذه العظمة الإلهية المتضعة، عظمة ابن الله الذي ترتجف أمامـه قوات السماء وترتعد أمامه الملائكة، الـذي نـدعوه في قانون الإيمان "إلهٍ من إله، نورٍ من نور، إلهٍ حق من إلـهٍ حق"، ونراه مع ذلك انحدر من علو عرش مجده ليلـبس طبيعتنا الضعيفة الترابية الحقيرة، بل ليلبس الذل والهوان والعار إلى حد أنه ولد في مغارة حقيرة في مذود الحيوانات ... أي اتضاع عميق يخزي كبرياء أهل العـالم، ويخـزي كبرياءنا نحن!! وأي فرح وعـزاء للمتـضعين المهـانين، المهملين في أعين العالم ولكنهم عظماء في عيني الله!!.

ليدخل الأغنياء الذين لا يشبعون من حشد المـال، وهمّهم الوحيد تحصيل الدرهم بالحلال أو الحرام، الـذين يقسون على الفقير بل يأكلون مال الأرملة واليتـيم ... وليدخل معهم أولئك الذين يحبون التزين بالملابس الفاخرة ليتشبهوا بالأغنياء، ويعتبروا الفقر ذلا وعاراً ... ليدخلوا إلى مغارة بيت لحم ويروا رب الغنى والمجد في حالة فقـر مدقع، ليس لديه من الفراش الوثير سوى قليل من التبن، ومن اللباس الفاخر سوى قليل من القمـط واللفـائف الحقيرة ... هذه كل ثروته وغناه وهو رب السماء.

ليدخل المتنعمون بأطايب الحياة الـذين يعبـدون أجسادهم فلا يفتشون إلا عن الراحة والملذات، الـذين يتضايقون من صوم أو صلاة أو برد أو حر أو تعـب ... ليدخلوا إلى مغارة بيت لحم فيفهمـوا قيمـة الاحتمـال والعذاب برؤيتهم هذا الطفل الإلهي، وهو ابن الله، من فيه الراحة والسعادة والنعيم، يرتجف من البرد في أقسى أيـام الشتاء، ويحتمل ما يحتمل من الآلام والعذاب حباً بالبشر.

فبعد هذا كله هل نتعجب إذا سمعنا المخلص يقول يوماً على الجبل:"طوبى للمساكين بالروح، ويلٌ لكم أيها

الأغنياء. طوبى للباكين، ويلٌ لكم أيها الضاحكون. طوبى للحزانى، ويلٌ لكم أيها المتنعمون". فلو اقتبس كل هؤلاء مثل هذه التعاليم السامية من مغارة بيت لحم، وتعلمـوا الإتضاع والفقر وحب العذاب، هل كنا نرى العالم علـى ما نراه الآن من الفوضى؟ هل كانت تحـصل الخلافـات والنزاعات بين الأفراد والعائلات؟ هل كانـت تحـصل الحروب أو المجازر البشرية كالتي نراها في أيامنا هذه؟.

فالسلام إذن مفقود في العالم، لا لأن الملائكة بشروا عند ميلاد المخلص بسلام عقيم دون ثمرة، بل لأن أهـل العالم لم يريدوا أن يقبلوا من المخلص مثل هذا الـسلام، لأنهم لم يريدوا أن يفهموه كما يريده الرب، وعلّمنا إيـاه بمثاله.

فلنسأل يسوع الطفل أن يفهمنا حقيقة هذا السلام الذي أتى به، المتوقف على مقاومة أميالنا وشـهواتنا ... لنسأله أن يفهم العالم المسكين المتطاحن بالحروب معنى هذا السلام وقيمته، حتى تحقن الدماء وتبطل المشاحنات ويحلّ الأمن والسلام على البشرية المتألمة ... فليمنحنا الـرب سلام أبناء الله، السلام الذي بشر به الملائكة لذوي المسرة الصالحة.

المهندسة آن سامي مطلوب
رئيسة جمعية أصدقاء القربان في الرعية